

## فلسفة الشهادة.. رؤية تحليلية في ضوء قوة الإدراك ومرتبطاته

الدكتور الشيخ أكرم بركات

### خلاصة المقالة:

الحياة بعد الموت يؤكدها القرآن الكريم في مَنْ يقتل في سبيل الله الذي اشتهر بمصطلح الشهيد، على الرغم من أن القرآن الكريم لم يستعمل هذا المصطلح بخصوص المقتول في سبيل الله، بخلاف الأحاديث النبوية التي كثر فيها استعمال مصطلح الشهيد في خصوص المقتول في سبيل الله. واللافت أن النصوص الدينية الإسلامية أكدت على حياة المؤمنين غير الشهداء بعد الموت. وفي ضوء ما تقدم يرد سؤالان:

**الأول:** ما هي الميزة الخاصة للمقتول في سبيل الله على سائر المؤمنين الأحياء بعد الموت؟ وهل تتجلى هذه الميزة في مقام «العندية» (عند ربهم)؟

**والثاني:** هو: أن هذا المقام جعله الله تعالى للشهداء الذي لا يراد منهم المقتولون في سبيل الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالشُّهَدَاءِ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾<sup>(1)</sup>، والملاحظ في هذه الآية أنها تجتمع مع آية المقتول في سبيل الله في بيان الثواب والأجر، ولكنها تزيد على تلك بالنور، فمن هم هؤلاء الشهداء الذين لهم هذا المقام من دون أن يقتلوا في سبيل الله؟

إنه مدخل لبيان حقيقة شهيد يشاهد ثوابه وأجره، وشهد آخر يشهد على غيره، فتكون شهادته أعلى مقاماً.

(1) سورة الحديد، الآية 19.

## كلمات مفتاحية:

الحياة، الشهادة، الشهيد، المشاهد، الشاهد، اليقين، العقل، الاطمئنان، البرزخ، الصديق.

## مقدمة:

الشهادة وسام يتضمّن قيمة إنسانية عالية تُمنح لمن يُقتل لأجل معتقده أو في سبيل قضية وطنية أو قومية أو إنسانية مع غضّ النظر عن دينية تلك العقيدة أو مذهبيتها، وكذا عن التوجّهات الخاصة لتلك القضية والتي تختلف بين فئة وأخرى، وبالتالي فالشهادة في عنوانها العام تعبر عن كمال يحترمه الناس، وإن اختلفوا في محققاته، فهي كـ«ليلي» العارف، يتغنّى الجميع بحبّها، وإن اختلفوا في الحقيقة التي تجسدها.

وللشهادة في الإسلام مقام واهتمام وخصوصية لا نجدها في سائر الأديان والمعتقدات والاتجاهات، فالنصوص الدينية لم تحصر قيمة «المقتول في سبيل الله» بحسب المصطلح القرآني بالثناء عليه وتقديره واحترامه والافتخار به، بل أكّدت على مصيره الاستثنائي بعد مفارقة روحه لبدنه؛ وهو «الحياة» الخاصة التي ترقى كثيراً عن الحياة الإنسانية التي نعهدها في هذه الدنيا.

وتأكيداً على هذه الحياة الاستثنائية نهى القرآن الكريم عن الاعتقاد بأنّ المقتول في سبيل الله «ميّت»؛ كسائر من يموت من الناس. قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾<sup>(1)</sup>.

بل أكّد القرآن الكريم على لزوم التأدّب اللساني عند ذكر المقتول في سبيل الله بأن لا يقال له: «ميّت»؛ لأنّه حيّ بتلك الحياة الاستثنائية. قال

الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (1).

ومضافاً إلى هاتين الآيتين، زخرت الأحاديث الشريفة المروية عن نبي الإسلام ﷺ وأهل بيته ﷺ ببيان تفاصيل تلك الحياة الخاصة التي يتمتع بها الشهيد بعد قتله؛ من قبيل: ما ورد عن الرسول الأكرم ﷺ: «لشَّهيد سبع خصال من الله: الأولى: أول قطرة من دمه مغفور له كلّ ذنب. والثانية: يقع رأسه في حجر زوجته من الحور العين<sup>(2)</sup>، وتمسحان الغبار عن وجهه فتقولان: مرحباً بك ويقول هو مثل ذلك لهما. والثالثة: يكسى من كساء الجنة. والرابعة: يبنتره خزنة الجنة من كل ريح طيبة أيهم يأخذ معهم. والخامسة: أن يرى منزله. والسادسة: يقال لروحه: اسرح في الجنة حيث شئت. والسابعة: أن ينظر في وجه الله، وإنها لراحة لكل نبي وشهيد»<sup>(3)</sup>.

وما ورد عنه ﷺ: «ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أنّها ترجع إلى الدنيا، ولا أنّ لها الدنيا وما فيها، إلاّ الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع، فيقتل في الدنيا؛ لما يرى من فضل الشهادة»<sup>(4)</sup>.

ويقف المتأمل في ما ورد في نصوص القرآن الكريم والأحاديث الواردة عن النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ، أمام سؤالين إشكاليين يُشكلان محور هذا البحث؛ هما:

1 - كيف نفهم المنّ الإلهي، المركز في الآيتين الكريمتين على كون المقتول في سبيل الله حيّاً، في ضوء تأكيد النصوص الدينية الأخرى على حياة غير المقتول في سبيل الله بعد موته؛ سواء حياة المعذبين في البرزخ، كما يفيدته قوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾<sup>(5)</sup>، مع ملاحظة أن «الفاء

(1) سورة البقرة، الآية 154.

(2) ينبغي فهم هذا النصّ في ضوء كون عالم البرزخ مثاليّاً، لا مادياً، كما سيتبيّن لاحقاً.

(3) الطوسي، محمد بن حسن: تهذيب الأحكام، تحقيق: حسن الخراسان، ط4، طهران، دار الكتب الإسلامية، 1365 هـ.ش، ج6، ص121.

(4) النيسابوري، مسلم: صحيح مسلم، لا ط، بيروت، دار الفكر، لا ت، ج6، ص35.

(5) سورة نوح، الآية 25.

للتعقيب، والتعذيب مشروط بالحياة»<sup>(1)</sup>، أو حياة المنعمين؛ كما يفيدته الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ أرواح المؤمنين لفي شجرة من الجنة، يأكلون من طعامها، ويشربون من شرابها، ويقولون: ربنا أقم الساعة لنا، وأنجز لنا ما وعدتنا، وألحق آخرا بأولنا»<sup>(2)</sup>، أو حياة الموتى بشكل عام؛ كما يفيدته الحديث النبوي: «من مات فقد قامت قيامته»<sup>(3)</sup>، وكذا الحديث الوارد عنه عليه السلام: «القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران»<sup>(4)</sup>.

فإذا أمكننا بسهولة أن نميِّز في من الله تعالى: بين حياة الشهيد المرزوق رزقاً حسناً، وبين الأحياء المعدَّيين في حياتهم البرزخية، لكن كيف نميِّز في ذلك المن الإلهي بين حياة الشهيد وسائر الموتى المؤمنين المرزوقين أيضاً بالرزق الحسن كما تقدّم في الرواية السابقة؟

2 - على الرغم من الوضوح في إطلاق مصطلح الشهيد على المقتول في سبيل الله في الأحاديث الشريفة كما يظهر ممّا تقدّم، فإنّ الملاحظ أنّ هذا المصطلح بالمعنى المتقدّم ليس وليد القرآن الكريم الذي لم يستخدم مصطلح الشهيد والشهداء بالمقتول في سبيل الله بشكل خاص؛ بل استعمله بمعانٍ أخرى كالعارف المتيقظ غير الغافل؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾<sup>(5)</sup>؛ وكالإنسان الحاضر الشاهد حدثاً بحيث يؤهله ذلك للإدلاء بإفادة حول ما حصل، كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ﴾<sup>(6)</sup>، وكالإنسان ذي المقام الرفيع يوم القيامة من دون تحديد

(1) الرازي، فخر الدين: التفسير الكبير، لا ط، لا م، لا ن، لا ت، ج9، ص89.

(2) الكليني، محمد: الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، لا ط، بيروت، دار الأضواء، 1985م، ج3، ص244.

(3) المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، تصحيح: محمد مهدي الخرساني، لا ط، طهران، دار الكتب الإسلامية، 1396هـ، ج58، ص7.

(4) م، ن، ج6، ص205.

(5) سورة ق، الآية 37.

(6) سورة البقرة، الآية 282.

قرآني في معنى شهادته كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (1)

في ضوء ما تقدم، يُطرح التساؤل حول النسبة بين المقتول في سبيل الله والشهيد بحسب المصطلح القرآني على احتمالات ثلاثة:

- التساوي بينهما، بأن يكون كل مقتول في سبيل الله شهيداً، وكل شهيد مقتولاً في سبيل الله.

- المقتول في سبيل الله أعم من الشهيد، بأن يكون المقتول في سبيل الله تارة شهيداً وأخرى غير شهيد.

- الشهيد أعم من المقتول في سبيل الله، بأن يكون الشهيد تارة مقتولاً في سبيل الله وأخرى غير مقتول.

هذان السؤالان هما محور هذا البحث الذي سوف نقسمه إلى المبحثين الآتيين.

## أولاً: حياة المقتول في سبيل الله:

نجيب في هذا المبحث عن السؤال الذي تقدم حول حياة المقتول في سبيل الله، فما هي هذه الحياة الخاصة التي تبقى في دائرة الاستثناء والمن الإلهي والتعظيم، مع الاعتقاد بأن أهل الإيمان من الموتى يكونون في عالم البرزخ أحياءً يتنعمون؟

### 1. حياة المقتول في سبيل الله بين الحقيقة والمجاز:

#### أ. التفسير المجازي لحياة المقتول في سبيل الله:

فسر جملة من المفسرين حياة المقتول في سبيل الله بتفسير مجازي، بمعنى بقاء الاسم والذكر الجميل على مر الدهور<sup>(2)</sup>، أو بمعنى أنهم

(1) سورة النساء، الآية 69.

(2) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ط5، بيروت، الأعلمي، 1983م، ج1، ص345.

«كالأحياء عند ربهم؛ لأنه يكتب لهم أجورهم إلى يوم القيامة، فكأنهم أحياء في الآخرة»<sup>(1)</sup>، وينطلق بعض هؤلاء في تفسيرهم المجازي لحياة المقتول في سبيل الله من عدم الإيمان بالحياة في عالم البرزخ، أي عالم ما بين الموت ويوم القيامة، وذلك لاعتقادهم بأن «النفس غير مجردة عن المادة، وأن الإنسان يبطل وجوده بالموت، ولانحلال التركيب، ثم يعثه الله إلى القضاء يوم القيامة»<sup>(2)</sup>، وقد نسب الفخر الرازي إلى جمهور المتكلمين<sup>(3)</sup> بأن الإنسان عبارة عن هذه البنية المحسوسة، وعن هذا الجسم المحسوس<sup>(4)</sup>.

ويلتقي هؤلاء في تفسيرهم لحياة المقتول في سبيل الله مع الماديين النافين لحياة الآخرة؛ فقد واجه النافون للعالم الآخر، مشكلةً تتعلق بحاجة المجتمع إلى ما يحفز أبناءه على التضحية بالنفس لأجل القضايا ذات الأهمية الكبرى؛ كالدفاع عن الوطن من غزو الآخرين، أو نشر الفكر الذي يؤمنون به حينما يحتاج إلى تقديم بالنفس في سبيله، فكيف يدعو هؤلاء إلى الفداء والتضحية مع عدم اعتقادهم بحياة أخرى؟!

لقد دعاهم هذا الأمر إلى إنشاء قيم حاولوا أن يقنعوا الناس بها لحل المشكلة، ومن هذه القيم أن الإنسان الحرّ يجب عليه أن يفدي بنفسه وطنه، أو عقيدته، أو شرفه، لينال بذلك الشهادة التي تعني الحياة الدائمة بحسن الذكر وجميل الثناء.

ب. الحياة المجازية للمقتول في سبيل الله عند الماديين في دائرة

### النقاش:

من الواضح أنّ النقاش في تفسير حياة الشهيد المجازية يختلف بين المؤمنين بالحياة الآخرة والنافين لها، فمادة النقاش مع الفريق الأول هي

(1) السمرقندي، نصر: تفسير السمرقندي، تحقيق: محمود مطرجي، لا ط، بيروت، دار الفكر، لا ت، ج1، ص289.

(2) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص345.

(3) المراد: المتكلمون من أهل السنة.

(4) انظر: الرازي، التفسير الكبير، م.س، ج21، ص40.

النصوص الدينية، بخلاف الفريق الثاني الذي لا يؤمن بها، ونبدأ النقاش مع الفريق الماديّ الداعي إلى الشهادة المجازية بمعنى الذكر الحسن، والثناء الجميل بما طرحه الشهيد السيد محمد باقر الصدر من أنّ أفعال الإنسان تنطلق من حبه لذاته، فحبُّ الذات هو المنطلق لجميع تصرفات الإنسان في هذه الحياة؛ فهو يدرس لأجل كمال ذاته، ويعمل لذلك، ويتزوج لذلك، وينجب الأولاد لشعور ذاته بالسعادة، ولأجل استمرار ذاته عبر الأولاد، وهكذا. وهنا يُطرح سؤال حول ما يدعو الإنسان إلى أن يضحي بنفسه للدفاع عن وطنه أو عن قضية ما، فإن كان هذا الإنسان يؤمن بالآخرة، وبأن هذه التضحية ستجعل ذاته تتكامل في عالم هو أفضل من هذا العالم، وسوف تسعد ذاته بذلك، فإنه يقدم على تلك التضحية انطلاقاً من حبه لذاته، أما حين لا يكون هذا الإنسان مؤمناً بالعالم الآخر، بل يعتقد بأن ذاته تنتهي بالموت، فما الذي يدعوه إلى تلك التضحية بالنفس، مع أنه سوف يفقد ذاته واستمتاعه في هذه الحياة، فأبي شرف سيلحقه، وهو قد فقد حياته دون رجوع، وذاته دون عودة، فهل هذا الشيء سوى الوهم؟!

ج. الحياة المجازية للمقتول في سبيل الله عند المتدينين في دائرة النقاش:

نعرض أمام المؤمنين بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حول تفسير الحياة بالمعنى المجازي ما يأتي:

- في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾<sup>(1)</sup>، إن قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لا يناسب المعنى المجازي لحياة الشهيد؛ بل كان المناسب أن يقال: بل أحياء ببقاء ذكرهم الجميل، وثناء الناس عليهم بعدهم؛ لأنه المناسب لمقام التسلية وتطبيب النفوس<sup>(2)</sup>.

(1) سورة البقرة، الآية 154.

(2) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص346.

- لقد أكد القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وجود عالم برزخي يتوسط الدنيا ويوم القيامة، تتخلله حياةٌ يتفاعل فيها الموتى بالنعيم أو العذاب، وقد مرّت بعض النصوص الواضحة في ذلك، والتي نضيف إليها ما عرضه الفخر الرازي في التفسير الكبير، وابن حزم في المحلى في مقام إثبات حياة البرزخ مقابل من أنكر ذلك<sup>(1)</sup>، وهي:
- قوله تعالى: ﴿أَعْرِفُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا﴾<sup>(2)</sup>، ففاء التعقيب، وكون التعذيب مشروطاً بالحياة يدلان على وجود الحياة بعد الموت قبل القيامة<sup>(3)</sup>.
- قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾<sup>(4)</sup>، فمن الواضح أن الغدو والعشي هما قبل القيامة التي تندثر فيها الكواكب<sup>(5)</sup>.
- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً﴾<sup>(6)</sup>، فالخطاب بقوله «أَرْجِعِي» إنما هو متوجّه إلى النفس حال الموت، فدلّ هذا على أن الشيء الذي يرجع إلى الله عزّ وجلّ بعد الموت يكون حياً راضياً عن الله، ويكون راضياً عنه الله، والذي يكون راضياً ليس إلا الإنسان، فهذا يدلّ على أن الإنسان بقي حياً بعد موت الجسد، والحيّ غير الميت، فالإنسان مغاير لهذا الجسد<sup>(7)</sup>.
- قول الرسول الأكرم ﷺ: «القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار»<sup>(8)</sup>.
- قوله ﷺ: «أنبياء الله لا يموتون، ولكن ينقلون من دار إلى دار»<sup>(9)</sup>.

(1) حياة البرزخ محلّ اتفاق عند الشيعة، واختلاف عند غيرهم من الاتجاهات الإسلاميّة، وهذا ما دعانا إلى اقتصار الأدلّة على ما عرضه العلّمان الرازي وابن حزم من أهل السنّة.

(2) سورة نوح، الآية 25.

(3) الرازي، التفسير الكبير، م، س، ج، 9، ص 89.

(4) سورة غافر، الآية 46.

(5) الرازي، التفسير الكبير، م، س، ج، 9، ص 41.

(6) سورة الفجر، الآيتان 28-29.

(7) الرازي، التفسير الكبير، م، س، ج، 9، ص 41.

(8) م. ن. ص 42.

(9) م. ن.



- قوله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»<sup>(1)</sup>.

- قوله ﷺ: «... حتى إذا حُمِلَ المَيِّتُ على نعشه، رفرَفَ روحه فوق النعش، ويقول: يا أهلي، ويا ولدي، لا تلعبنَّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعتُ المال من حلّه وغير حلّه، فالغنى لغيري والتبعة عليّ، فاحذروا مثل ما حلَّ بي»، فالنبيّ ﷺ يُصرِّح بأنّه بعد موت الإنسان يبقى هناك مَنْ ينادي، ويقول: يا أهلي، ويا ولدي، جمعتُ المال من حلّه وغير حلّه، ومعلوم أنّ الذي كان الأهل أهلاً له، وكان جامعاً للمال من الحرام والحلال، والذي بقي في رقبته الوبال، ليس إلّا ذلك الإنسان؛ فهذا تصريح بأنّه في الوقت الذي كان فيه الجسد ميتاً محمولاً، كان ذلك الإنسان حيّاً باقياً فاهماً، وذلك تصريح بأنّ الإنسان شيء مغاير لهذا الجسد ولهذا الهيكل<sup>(2)</sup>.

- قوله ﷺ: «إذا مات الرجل عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، إن كان من أهل الجنة فالجنة، وإن كان من أهل النار فالنار، ثمّ يقال له: هذا مقعدك الذي تبعث إليه يوم القيامة»، علّق ابن حزم على هذا الحديث بقوله: «ففي هذا الحديث أنّ الأرواح حسّاسة عالمة مميّزة بعد فراقها الأجساد»<sup>(3)</sup>.

إنّ هذه الأدلّة وغيرها تثبت حياة الإنسان بعد الموت وقبل القيامة، ومع ثبوتها يبطل ما دعا أولئك المفسّرين إلى تفسير حياة الشهيد بالحياة المجازية.

وعليه، فالمدخل الرئيس لإثبات وجود الحياة الحقيقيّة للشهيد يكون من خلال إثبات وجود نفس إنسانيّة غير الجسد، وهذا ما نبهته في ما يأتي.

## 2. حقيقة الحياة:

يدرك الناس بشكل عامّ معنى الحياة، وأنّها مقابل الموت، ويميّزون بين

(1) الرازي، التفسير الكبير، م.س، ص42.

(2) انظر: م.ن.

(3) ابن حزم، علي: المحلّي، لا ط، لا م، دار الفكر، لا ت، ج1، ص26.

الموجود الحيّ وغير الحيّ، إلا أنّهم على الرغم من تلك المعرفة العامّة، قد يجدون صعوبة في تحديد المعنى الدقيق لمفهوم الحياة.

### أ. حياة النبات:

إنّ الحياة في العلوم الطبيعيّة تتحقّق في أدنى درجاتها في النبات الذي يعدّونه من الكائنات الحيّة، وبالتالي فإنّ الحياة فيها تشترك مع الحياتين الحيوانيّة والإنسانيّة اللتين ترتقيان في درجتيهما عن الحياة النباتيّة. وقد حدّد مقال علميّ في الموقع الرسميّ لجامعة كامبردج البريطانيّة خصائص الحياة بالحدّ الأدنى بسبعة أمور هي:

- الحركة
- التنفّس
- النموّ (بمعنى استعمال الغذاء لنموّ الخلايا حجماً وعدداً)
- الإحساس (بمعنى ردّة الفعل اتجاه أيّ مؤثّر خارجيّ كالضوء، والحرارة، والجاذبيّة، والمواد الكيميائيّة)
- التكاثر
- التغذية
- التخلّص من الفضلات

وقد عبّر العلماء قديماً عن هذه الحياة بالقوّة النامية<sup>(1)</sup>، ولعلّ تسميتها بالقوّة باعتبار أنّ الحياة مقابل الموت، وأصل معناه -كما ذكر ابن فارس- ذهاب القوّة، وقد استشهد لهذا المعنى باستعمال نبويّ حول الثوم هو: «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة، فلا يقربنّ مسجدنا، فإن كنتم لا بدّ أكلوها، فأميتها بطبخها»<sup>(2)</sup>.

ولعلّ هذا المعنى هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ

(1) الراغب الأصفهاني، الحسين (ت 502 هـ): المفردات في غريب القرآن، ط1، مصر، مطبعة الميمنية، 1324هـ-ق، ص138.

(2) ابن فارس، أحمد (ت 395 هـ): معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، لا ط، قم المقدّسة، مكتب الإعلام الإسلاميّ، 1404هـ-ق، ج5، ص383.

شَيْءٍ حَيٍّ<sup>(1)</sup>، وقوله عز وجل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾<sup>(2)</sup>،  
وقوله سبحانه: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾<sup>(3)</sup>.

### ب. حياة الحيوان:

ربّما كانت قوّة الحياة في الحيوان، من ناحية الإحساس الواضح وكذا قوّة التحرك بالإرادة، داعياً إلى تسميته باللفظ المستمدّ من مادّة الحياة؛ فأطلق عليه «حيوان». وهذه الحياة الحيوانية، مضافاً إلى امتيازها بما تقدّم من خصائص الحياة الأدنى المتحقّقة في النبات، تمتاز بخصائص إدراكية ثلاث، قد يشترك بعضها في أصله مع الحياة النباتية، لكن يبقى التميّز في حياة الحيوان في المستوى الإدراكيّ الذي لديه، وهذه الخصائص الثلاث هي:

- الحسّ، وهو القوّة الإدراكية للحواس الخمس: البصر والسمع واللمس والشم والذوق.

- الخيال، أو القوّة التي تتصرّف بالمحسوسات، وتقيس بها، فنلاحظ أنّ القطعة، مثلاً، قبل أن تقفز إلى أعلى الجدار، فإنّها تقيس المسافة بين أعلاه والأرض التي تقف عليها، وهكذا نرى الفهد يتباطأ أثناء مراقبة فريسته، فإذا صار على بعد بضعة أمتار يقفز بسرعة ليمسك بها، وتسمى هذه القوّة المتصرّفة بالمحسوسات «الخيال».

- الوهم، أو القوّة المتوهّمة، وهذه القوّة لا تتعلق بالمادّة كالقوتين السابقتين، بل بالمعنى، وبالتحديد بالمعنى الجزئيّ، وهذا ما نلاحظه في انجذاب الحيوانات نحو أولادها، بل قد نجد ذلك منعكساً في لغة الجسد؛ كدمعة الفيل والكلب حزناً وألماً.

وقد عرّف العلماء قديماً الحيوان بما يرجع إلى هذه القوى بقولهم:

(1) سورة الأنبياء، الآية 30.

(2) سورة الحديد، الآية 17.

(3) سورة ق، الآية 11.

الحيوان: جسم نام حسّاس متحرّك بالإرادة، فالجسم النامي هو الجنس الذي يشترك فيه الحيوان مع النبات، والحسّاس المتحرّك بالإرادة هو الفصل الذي يفترق به الحيوان عن النبات، وإن كان الافتراق من حيث القوّة الإدراكيّة.

### ج. حياة الإنسان:

تتضمّن حياة الإنسان جميع خصائص النباتات وجميع قوى الحيوان الإدراكيّة الثلاث التي من خلالها يشعر بالسعادة أو بالشقاء، باللذة أو بالألم، بالاطمئنان أو بالقلق، وما شابه ذلك. فإن كانت الحياة عبارة عن ذلك الشعور، فإنّه لا يكون إلّا من خلال الإدراك، فمن يرى ولده مريضاً يشعر بالألم، ومن يسمع قصيدة مدح له من محبّ يشعر بالسعادة، في حين أنّ من يموت أغلى الناس لديه من دون علم بذلك لا يشعر بأيّ أسى، ومن يخسر جميع ماله من دون معرفة له بذلك لا يشعر بأيّ حزن، والخلاصة: إنّ الشعور الإنسانيّ الذي يُعدّ من علامات الحياة ينشأ من إدراك الإنسان وعلمه، فالذي يحركّ شعور الإنسان ليس وجود الشيء في الواقع؛ بل علمه وإدراكه بوجود ذلك الشيء.

وما تقدّم كلّ مشترك بين الإنسان وسائر الحيوان في تلك القوى الثلاث، فهل نقف عند هذه المشتركات في تحديد حياة الإنسان، أم إنّ ثمة تميّزاً للإنسان عن الحيوان في حقيقة حياته؟ إنّ الإجابة عن هذا السؤال تكمن في تحديد تميّز الإنسان عن الحيوان بعد اشتراكه معه في تلك القوى والخصائص، فالإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات بأنّ لديه إدراكاً أعلى من تلك الإدراكات الثلاثة، وهو الناتج من قوة باطنيّة تستطيع أن تفصل ما تميّز به الموجودات، وتتعرفّ على المشترك بينهما، فحينما يلاحظ الإنسان شجرة زيتون، وشجرة تين، وشجرة صنوبر، وشجرة رمان، فإنّه يستطيع أن يستخرج المشترك بينها، وأن يطلق عليها عنوان «شجرة» دون إضافة إلى نوع خاصّ. ويُطلق على هذا العنوان مصطلح «كلي» مقابل الشجرة الخاصّة

المحددة التي يطلق عليها مصطلح «جزئي».

وبعبارة ثانية: يمكن للإنسان بواسطة هذه القوة الباطنية أن «يقشّر» الجزئيات عن ما تمتاز به بعضها عن بعض، ليدرك معنى عامًا مشتركًا هو الكلّي، فحينما يرى سميرًا وزيدًا وسلمى وهدى فإنه يستطيع بتلك القوة أن يجردّهم في ذهنه عن كل ما يتميّزون به من جنس ولون وطول ووزن وانتماء وغير ذلك، ليدرك المشترك بينهم وهو «إنسان»، وهذا المعنى الذي أدركه هو الكلّي.

مما تقدّم نعرف أنّ الإنسان يتميّز عن الحيوانات بأنّه يدرك الكلّيات، بينما سائر الحيوانات لا تدركها، بل يقتصر إدراكها على الجزئيات.

ويُصطلح على القوة المدركة للكلّيات بـ«العقل» الذي به استطاع الإنسان أن يطوّر المجتمع البشريّ، فالحيوان ما زال من ملايين السنين في الغابة دون أن يحدث فيها أيّ تطوير؛ لأنّه يفتقد لتلك القوة التي تدرك الكلّيات. بينما استطاع الإنسان بإدراكه للكلّيات أن يؤسس العلوم والفنون التي شكّلت قواعد كليّة لارتقاء المجتمع الإنسانيّ.

وللإنسان العاقل ميزة عن الملائكة التي هي عقول أيضًا، لكنّها تفترق عن الإنسان في كونها عقولاً محضة مضطّرة للانجذاب في سيرها نحو الله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾<sup>(1)</sup>، بينما الإنسان عاقل حرّ له إرادة مختارة غير مضطّرة، ومن خلال انضمامها للعقل يحقق الإنسان أفضل كمال له، وذلك برقيّه عن ملائكة الله تعالى.

إنّ إدراك الإنسان للكلّيات يتطوّر مع تقدّمه في مساره الاختياريّ، ويفتح له أبوابًا جديدة من الشعور بالسعادة، من خلال تحقيق إنجازات كبرى في مسيرته الفرديّة والاجتماعيّة، وبهذا الأمر تتميّز حياة الإنسان عن حياة سائر الحيوانات بعدما تميّز عن الملائكة بسيره الاختياريّ.

(1) سورة التحريم، الآية 6.

### 3. ميزة حياة الشهيد عن غيره من الموتى الأحياء:

إنَّ ما تقدّم من بيان أنواع الإدراك لدى الإنسان يشكّل مدخلاً لفهم الحياة الخاصّة الاستثنائية للمقتولين في سبيل الله؛ فصحيح أنّ الموتى من أهل الإيمان يُرزقون في برزخهم، كما تقدّم ذلك في حديث الإمام الصادق عليه السلام، إلا أنّ حياة المقتولين في سبيل الله هي أرقى وأعظم من حياة أولئك المؤمنين، فهي الحياة التي قيدها الله تعالى بقوله: «عند ربهم» بما يعبر عن مقام خاصّ يصطّلع عليه بعضهم بمقام «العنديّة»، الذي يشعر الإنسان فيه بغاية السعادة المأمولة التي يمكن مقاربتها في العوالم الثلاثة القادمة قبل جنة الخلد.

#### أ. حياة المقتول في سبيل الله في عالم البرزخ:

عرض القرآن الكريم حياة المقتول في سبيل الله البرزخية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ- وَكَسَبَتْبَشْرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (1).

في هذه الآيات تتجلى حياة المقتولين في سبيل الله في العناوين الآتية:

- الرزق المتواصل، فـ «يرزقون» فعل مضارع يفيد الاستمرار.

- الفرح بالثواب.

- الاستبشار بالتحاق رفاق الجهاد.

- الاطمئنان، فهم لا خوف عليهم، ولا يحزنون، فالخوف هو حذر الإنسان

من أن يفقد عزيزاً عليه، والمقتول في سبيل الله في مقام العنديّة واجدٌ

لله، فلا يخاف فقد غيره، والحزن يتعلّق بالحالة النفسية التي تعترى

الإنسان حينما يفقد عزيزاً عليه، والمقتول في سبيل الله وجد الله الذي

هو خير من كلّ شيء، فلا يحزن على شيء.

- الاستبشار بالنعيم المستقبلي.

مضافاً إلى هذه الآيات، وردت روايات عديدة حول حياة الشهيد في البرزخ؛ كالحديث النبوي السابق حول الخصال السبع للشهيد التي تتضمن العناوين الآتية:

- غفران الذنوب
- الحور العين
- كساء الجنة
- طيب الجنة
- منزل الجنة
- سراح الروح
- النظر في وجه الله

إنَّ الخصلة الأولى تبعد الإنسان من قلق الماضي الذي يتولد من التفكير بذنوبه السابقة، وما قد يترتب عليها في المستقبل مما يقف عقبةً أمام شعوره بالسعادة، فالشهادة تلغي ذلك القلق بغفران الذنوب.

أمَّا الخصال الثانية إلى السادسة، فهي تعبّر عن مشابه أعلى لمناشئ السعادة في الدنيا، والتي يمكن تصوّرها في الاكتفاء العاطفي، والثياب الأنيقة، والعطر الطيّب، والمنزل الجميل، والسياحة المفتوحة، فهذه العناوين هي منشئ سعادة الإنسان في الدنيا، وبالتالي فإنَّ الحديث النبوي الشريف يفيد أنّ ما يُعطاه الشهيد هي هذه الأمور بأرقى أحوالها، فالإكتفاء العاطفي قد عبّر عنه بالحضانة في حجر زوجتين من الحور العين، وهو الذي يعبّر عن الملاء الكامل للناحية العاطفية في عالم البرزخ المثالي الذي لا يتناسب مع اللذة الجنسية المادية؛ لكونه عالمًا غير مادي، ولعلّه لذلك لم يورد الحديث النبوي ما يتعلّق بالطعام والشراب.

مضافاً إلى المنحة العاطفية، يكمل الحديث النبوي عطاء الله للشهيد

بما يعبر عن ملء رغباته بما كان يحب في الدنيا بصورة أكمل؛ ولذا كان الحديث عن الثياب والعطر والمنزل والسياحة.

وعلى الرغم من أهمية ما تقدّم من خصال ست تحقق السعادة الكبرى للإنسان، فإنّ الخصلة السابعة هي الأهمّ والأعظم؛ وهي أنّه ينظر في وجه الله، وأنّها راحة لكلّ نبيّ وشهيد. إنّهُ تعبير عن الوصول إلى الدرجة الكاملة التي تعبّر عن غاية رضا الله تعالى، إنّهُ وصال الحبيب مع حبيبه، والخليل مع خليله، والعاشق مع معشوقه، فالمحبُّ حبًّا حقيقياً يقدّم لقاء حبيبه ورضا حبيبه على كلّ لقاء وأنس، ألسنا نرى في حياتنا أمّا تقدّم حبّ ولدها واللقاء به على كلّ ما في هذه الدنيا من متاع ولذات، فكيف بحبّ الله تعالى، وأنس اللقاء معه؟ إنّهُ أهمّ من الحور والثوب والطيب والمنزل والسياحة، إنّهُ مقام العنديّة الذي هو غاية سعادة الشهيد.

#### ب. حياة الشهيد بين النفختين:

قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾<sup>(1)</sup>.

إنّهُ حديث عن نفخ الصور الأوّل الذي هو نفخ الصعق الذي يسبب فيه جميع الأحياء الذين يشملون النفوس الإنسانيّة في عالم البرزخ والجنّ والملائكة؛ فالكلّ يصعق ويسبب، ويذهب إدراكه وعلمه، ويبقى الجميع في سبتهم وسكونهم حتى يُنفخ في الصور نفخة الإحياء ليوم القيامة. لكن هناك استثناءً لعبادٍ كاملين ذوي حياة قويّة لا ينالها الصعق، فيبقون واعين مدركين عارفين يعيشون سعادة الحياة بين النفختين؛ وهم الذين عبّرت الآية عنهم بقوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فمن هؤلاء المكرّمون الأحياء؟

(1) سورة الزمر، الآية 68.



نقل الشيخ الطوسي في تفسير جوامع الجامع عن ابن جبير في تفسيره لـ «من شاء الله»: «هم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش»<sup>(1)</sup>.

وقد ورد أن ابليس كان عارفاً بمقام ومنزلة من يكون حياً بين النفختين، فطلب من الله تعالى أن يبقيه حياً إلى يوم البعث، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾<sup>(2)</sup>، وهو يعني أن يبقى حياً بين النفختين، لكن الله تعالى أجابه رافضاً ذلك الطلب: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾<sup>(3)</sup>، الذي يُراد منه يوم النفخ الأول.

### ج. حياة الشهيد يوم القيامة:

ورد عن الإمام عليّ عليه السلام حديثٌ طويلٌ يصف فيه حياة الشهيد يوم القيامة بقوله: «...إذا كان يوم القيامة يخرج من قبره شاهراً سيفه تشخب أوداجه دمًا، اللون لون الدم، والرائحة المسك يخطو في عرصة القيامة. فالذي نفسي بيده لو كان الأنبياء على طريقهم لترجلوا لهم لما يرون من بهائمهم»<sup>(4)</sup>.

مضافاً إلى هذا الوصف الرائع لحياة الشهيد يوم القيامة، ورد حديث نبويٌّ عن مقام الشفاعة للشهيد؛ وهو: «ثلاثة يشفعون إلى الله فيشفعون: الأنبياء، ثمّ العلماء، ثمّ الشهداء»<sup>(5)</sup>.

إنّ ما تقدّم في مقام ومكانة المقتول في سبيل الله في تلك العوالم يدلّ على تميّز حياته عن حياة الآخرين، فالمقتول في سبيل الله، وإن كان يشترك بعد قتله معه سائر الموتى المؤمنين في الحياة بعد الموت، بل في الرزق في تلك الحياة، إلا أنّ حياة المقتول في سبيل الله هي أرقى منزلةً ومكانةً وأقوى حضوراً وفاعليّةً، بما يتلاءم مع مقام «العنديّة» (عند ربّهم)،

(1) الطبرسي، الفضل بن الحسن: تفسير جوامع الجامع، ط1، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، 1421هـ-ق، ج3، ص229.

(2) سورة الحجر، الآية 36.

(3) سورة الحجر، الآيتان 37-38.

(4) المجلسي، بحار الأنوار، م، س، ج97، ص13-14.

(5) المجلسي، بحار الأنوار، م، س، ج8، ص34.

الذي هو عنوان المائز بين هذين النوعين من الحياة، وبهذا نعرف الجواب عن الإشكالية الأولى التي هي سؤال هذا المبحث، ويبقى السؤال عن ميزة إضافية للشهداء قد تفهم من خلال التعمق بمصطلح الشهادة الذي أطلقته السُّنة الشريفة على المقتول في سبيل الله، بينما عرضه القرآن الكريم في مقام آخر يشترك مع المقتول في سبيل الله بتلك العنديّة، وهو ما أشار إليه القرآن بقوله تعالى: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾<sup>(1)</sup>، فهل من فارقٍ بين المقتول في سبيل الله والشهيد بحسب المصطلح القرآني أم هما واحد؟ وهذا ما سوف نقاربه في المبحث الآتي.

### ثانياً: الشهيد بين المشاهد والشاهد:

إنّ التعمق في مصطلح الشهيد في القرآن الكريم لمعرفة معناه الدقيق، ولاسيما بالنسبة إلى مصطلح المقتول في سبيل الله، يدعونا إلى البحث في مصطلح الشهيد في القرآن الكريم والسنة الشريفة؛ عرضاً وتحليلاً، وإلى مقارنة نقاط الالتقاء والافتراق بين المقتول في سبيل الله والشهيد في القرآن الكريم؛ معنىً ومنزلةً.

#### 1. الشهيد في القرآن الكريم:

أطلق القرآن الكريم صفة الشهيد على العديد من الذوات؛ منها:

أ. الله عز وجل:

قال الله تعالى:

- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾<sup>(2)</sup>.
- ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾<sup>(3)</sup>.
- ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾<sup>(4)</sup>.

(1) سورة الحديد، الآية 19.

(2) سورة آل عمران، الآية 98.

(3) سورة المائدة، الآية 117.

(4) سورة الأنعام، الآية 19.

- ﴿وَمَا نُرِيدُكَ بِعَظْمِ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾<sup>(1)</sup>.

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصْرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾<sup>(2)</sup>.

- ﴿مَا سَأَلْتُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾<sup>(3)</sup>.

- ﴿سَأْرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَو لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾<sup>(4)</sup>.

- ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾<sup>(5)</sup>.

- ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾<sup>(6)</sup>.

ب. الرسول محمد ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾<sup>(7)</sup>.

ج. الربانيون والأخبار:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَجْعَلُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾<sup>(8)</sup>.

د. الحاضر المشاهد لحدث بما يؤهله للإدلاء بإفادة حوله:

قال الله عز وجل:

- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ

(1) سورة يونس، الآية 46.

(2) سورة الحج الآية 17.

(3) سورة سبأ، الآية 47.

(4) سورة فصلت، الآية 53.

(5) سورة المجادلة، الآية 6.

(6) سورة البروج، الآية 9.

(7) سورة البقرة، الآية 143.

(8) سورة المائدة، الآية 44.

بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ  
وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْحَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ  
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ  
بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ  
وَأَمْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا  
الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ  
كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا  
إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ  
أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا  
فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمِكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (1).

- ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (2).

قال العلامة الطباطبائي في تفسيرها: «أي حضرت عند الله تعالى كل نفس معها سائق يسوقها، وشاهد يشهد بأعمالها، ولم يصرح تعالى بكونهما من الملائكة، أو بكونهما من الكاتبين، أو من غير الملائكة، غير أن السابق إلى الذهن من سياق الآيات أنهما من الملائكة» (3).

و. الإنسان العارف المتيقظ غير الغافل:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (4).

ز. فئة خاصة من المنعم عليهم:

قال الله عز وجل:

- ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ

(1) سورة البقرة، الآية 282.

(2) سورة ق، الآية 21.

(3) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م، س، ج، 18، ص 349.

(4) سورة ق، الآية 37.

وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿١﴾ .  
- ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ  
وَقَضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (2).

- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ  
أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (3).

الملاحظ في الآيات السابقة أن ألفاظ الشهيد والشهداء ترجع إلى معنى واحد يدور حول المعرفة، إلا أن هذه المعرفة تختلف درجاتها، بدءاً من المعرفة المستفادة من شهادة الإنسان على حدث ما كالبيع، وهي تكون من خلال الحواس، إلى المعرفة الإلهية الكاملة المستفادة من كونه عز وجل شهيداً على كل شيء؛ إذ الوجود كله حاضر عنده دون وسيط.

## 2. الشهيد وسرُّ التسمية في السنة الشريفة:

لعل إصرار النصوص النبوية الشريفة على إطلاق الشهيد على المقتول في سبيل الله تعالى يرجع إلى ما لهذا اللفظ من صفة معرفية إدراكية خاصة، أراد الإسلام أن يؤكد عليها؛ لما تحمله من معنى يدل على المقام والخصوصية للمقتول في سبيل الله.

ويظهر هذا المقام وتلك الخصوصية من خلال التأمل في الألفاظ التي استعملت بمعنى الإدراك والمعرفة، وقد ذكر العلامة الطباطبائي رحمته الله «أنَّ الألفاظ المستعملة في القرآن الكريم من أنواع الإدراك كثيرة، ربّما بلغت العشرين؛ كالظنّ، والحسبان، والشعور، والذكر، والعرفان، والفهم، والفقّه، والدراية، واليقين، والفكر، والرأي، والزعم، والحفظ، والحكمة، والخبرة، والشهادة، والعقل...» (4).

(1) سورة النساء، الآية 69.

(2) سورة الزمر، الآية 69.

(3) سورة الحديد، الآية 19.

(4) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص247.

وعند المقارنة بين هذه الألفاظ في مدلولاتها الإدراكية، وبين الشهادة التي من مادتها صيغت صفة الشهيد، يتبين الفرق المقامي. وهذا يظهر من العرض الآتي الذي فصله صاحب الميزان حول معاني المصطلحات السابقة، وهو<sup>(1)</sup>:

- الظن: التصديق الراجح، وإن لم يبلغ حدّ الجزم والقطع.
- الحسابان: مثل الظن بفارق بسيط.
- الشعور: الإدراك الدقيق، أخذ من الشَّعر لدقَّته، ويغلب استعماله في المحسوس دون المعقول.
- الذكر: استحضار الصورة المخزونة في الذهن بعد غيبته عن الإدراك، أو حفظه من أن يغيب عن الإدراك.
- العرفان: تطبيق الصورة الحاصلة في المدركة على ما هو مخزون في الذهن.
- الفهم: انفعال الذهن عن الخارج بانتقاش الصورة فيه.
- الفقه: التثبُّت في هذه الصورة المنتقشة فيه، والاستقرار في التصديق.
- الدراية: التوغُّل في ذلك التثبُّت حتى يدرك خصوصية المعلوم، وخبائاه، ومزاياه، ولذا يستعمل في مقام تضخيم الأمر وتعظيمه. قال الله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾<sup>(2)</sup>.
- اليقين: اشتداد الإدراك الذهني، بحيث لا يقبل الزوال.
- الفكر: سير ومرور على المعلومات الموجودة الحاضرة لتحصيل ما يلازمها من مجهولات.
- الرأي: التصديق الحاصل من الفكر والتروِّي، غير أنّ الغالب استعماله في العلوم العملية؛ مما ينبغي فعله وما لا ينبغي، دون العلوم النظرية الراجعة إلى الأمور التكوينية. ويقرب منه البصيرة، والإفتاء، والقول.

(1) انظر: م.ن، ص 247-248.

(2) سورة الحاقّة، الآيات 1-3.

- الزعم: التصديق من حيث إنه صورة في الذهن، سواءً أكان التصديق راجعاً أم جازماً قاطعاً.

- العلم: الإدراك المانع من النقيض.

- الحفظ: ضبط الصورة المعلومة بحيث لا يتطرق إليه التغيير والزوال.

- الحكمة: الصورة العلمية من حيث إحكامها وإتقانها.

- الخبرة: ظهور الصورة العلمية بحيث لا يخفى على العالم ترتب آية نتيجة على مقدماتها.

فالملاحظ في هذه الألفاظ الإدراكية أن بعضها يُعبر عن ترجيح إدراكي بدون يقين وقطع فيه، وبعضها يُعبر عن إدراك يحصل من خلال حضور صورة الشيء إلى الذهن بنحو من أنحاء الحضور المتقدمة التي لا يتعدى أرقاها حضور صورة الشيء في الذهن.

وهنا يبرز معنى الشهادة؛ لأنَّ الشهادة هي نيل نفس الشيء وعينه.

ولعلَّ المعنى يتضح من خلال التمييز بين ثلاث مراتب من المعرفة اليقينية؛ هي:

- الأولى: أن نتيقن بوجود النار بدون أن نراها، وهو ما يُصطلح عليه بـ «علم اليقين».

- الثانية: أن نتيقن بوجود النار من خلال رؤيتها بالعين المجردة، وهو ما يُصطلح عليه بـ «عين اليقين».

- الثالثة: أن نتيقن بوجود النار من خلال وضع اليد فيها، وهو ما يُصطلح عليه بـ «حق اليقين»، وفي هذه المرتبة فإنَّ المعرفة تعني نيل نفس الشيء وعينه، لا صورته وماهيته.

بناءً على ما تقدّم، فإنَّ إطلاق الشهيد على المقتول في سبيل الله في السُّنة النبوية الشريفة يشير إلى النوع الأتمّ من الإدراك الذي يُمثّل حقيقة الحياة الإنسانية، فبدون إدراك لا حياة، وبتكامل الإدراك تتكامل الحياة. وهذا ما يُشكّل مدخلاً للمطلب الثاني حول الفرق بين الحياة

العنديّة الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ﴾<sup>(1)</sup>، وبين الحياة العنديّة الواردة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾<sup>(2)</sup>. فما الفرق بين «العنديتين»؟

### 3. الشهيد بين عنديّة الرزق وعنديّة النور:

تقدّم إخبار القرآن الكريم أنّ المقتول في سبيل الله حيّ عند ربّه، وأنّ مقام العنديّة هذه يتحقّق فيه الرزق المتواصل، والفرح به، مضافاً إلى الاستبشار بالتحاق الإخوان، والاطمئنان التام.

فهذا المقام فيه الشهود الحضوريّ لنعم الله عزّ وجلّ، وهو على نحو تعديّ فعل «شهد» إلى المفعول به، وهذا ما استعمل في القرآن الكريم في أكثر من آية، من قبيل قوله عزّ وجلّ: ﴿لَيَشْهَدُوا مَنَفِعَ لَهُمْ﴾<sup>(3)</sup>، وقوله سبحانه: ﴿وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(4)</sup>، فالمقتول في سبيل الله هو شهيد بمعنى المشاهدِ نعم الله المتفاعل معها.

إلّا أنّ فعل «شهد» في القرآن الكريم لا يقتصر على التعديّ إلى المفعول به، بل يرتبط في آيات عديدة بالجار والمجرور، وقد يكون الجارّ هو حرف «على» كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿لَيَكُونَنَّ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾<sup>(5)</sup>، والشهود في هذه الحالة ليس الله والتفاعل معها؛ بل هو يتعلّق بمقام شامخ له علاقة بالناس.

وقد يحذف الجار والمجرور لفظاً ويضمّران معنى؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾<sup>(6)</sup>.

(1) سورة آل عمران، الآيات 168-170.

(2) سورة الحديد، الآية 19.

(3) سورة الحج، الآية 28.

(4) سورة النور، الآية 2.

(5) سورة الحج، الآية 78.

(6) سورة الحديد، الآية 19.



فهذه الآية تتحدّث عن نوع آخر من الشهداء، قد يكونون من المقتولين في سبيل الله، وقد يكونون في هذا الموقع الشامخ من دون قتل. واللافت في هذه الآية أنّها تتحدّث عن مقام «العندية» (عند ربّهم) الذي يعقبه الأجر (لَهُمْ أَجْرُهُمْ)، وهو ما قد يكون ذلك الثواب الذي يشاهده الشهيد، ويحضر نعمه، ويتفاعل معها فرحاً بها، كما في آية المقتول في سبيل الله، إلا أنّ الآية السابقة تتحدّث عن إضافة إلى الأجر في مقام العندية، وهو «النور» (وَنُورُهُمْ) الظاهر بنفسه والذي له علاقة بغيره؛ إذ النور مُظهرٌ لغيره مضافاً إلى ظهوره في نفسه، وهو ما ينبغي التوقّف عنده ملياً للتعرفّ على معنى هذا النوع من الشهيد القرآنيّ الذي له مقام «عندية النور» مضافاً إلى «عندية الأجر» التي قد تكون عين «عندية الرزق» المتقدّمة في آية المقتول في سبيل الله.

#### 4. شهداء عندية النور:

إنّ اللافت في الآية المتقدّمة: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصّٰدِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾<sup>(1)</sup>، أنّها تُخبر عن مقام عظيم يتمثّل بأمرين:

- الأوّل: مقام الصديقين، فالصديق هو من تحقّقت فيه أمور ثلاثة؛ هي:
  - أن يكون خبره مطابقاً للواقع.
  - أن يكون معتقداً يقينياً بما يخبر عنه.
  - أن يكون فعله وسيره العمليّ ملازماً لقوله واعتقاده، أي سرى الصدق في قوله واعتقاده وفعله، فيقول ما يعتقد، ويعتقد ما يقول، ويفعل ما يقوله ويعتقده<sup>(2)</sup>.

- الثاني: مقام الشهداء، الذي يبدو أنّه لا يقتصر على مشاهدة النعم والكرامات الإلهية، بل يتعلّق بالناس؛ كما هو حال الشهداء في قوله تعالى السابق

(1) سورة الحديد، الآية 19.

(2) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج19، ص163.

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾<sup>(1)</sup>.  
وهذا يتضح من خلال التأمل في صدر الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ  
وَرُسُلِهِ﴾؛ وهو مبتدأ، وخبره ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ  
لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

فاللافت في هذا أن قيمة الخبر العظيمة لا تتناسب مع الظاهر بدوًا من  
المبتدأ؛ فليس صحيحًا أن يكون مجرد الإيمان بالله ورسوله يؤدي إلى كون  
المؤمن بذلك صديقًا شهيدًا، فالمسلمون كلهم يؤمنون بالله ورسوله، فهل  
يعقل كونهم جميعًا صديقين وشهداء؟!.

لا بد من أن يكون مقصود الله عز وجل أمرًا آخر غير هذا الفهم  
السطحي لمطلع الآية. فما هو المقصود؟

يلاحظ المتأمل في الآية أن متعلق الإيمان لم يكن فيها «رسوله»؛ أي  
الرسول محمد ﷺ، كما هو الحال في العديد من الآيات القرآنية، من قبيل  
قوله تعالى:

- ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾<sup>(2)</sup>.
- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾<sup>(3)</sup>.
- ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾<sup>(4)</sup>.
- ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾<sup>(5)</sup>.
- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾<sup>(6)</sup>.
- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجْرَةِ تُنَجِّيْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾  
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾<sup>(7)</sup>.

(1) سورة الحج، الآية 78.

(2) سورة الحجرات، الآية 15.

(3) سورة النور، الآية 62.

(4) سورة الفتح، الآية 13.

(5) سورة الأعراف، الآية 158.

(6) سورة النساء، الآية 136.

(7) سورة الصف، الآيتان: 10-11.

بل إنَّ متعلِّق الإيمان بعد الله عزَّ وجلَّ هو «رسله»، وهذا ما يفتح أفقًا في فهم المراد من الآية، فالإيمان الذي يوصل إلى مرتبة الصديق والشهيد هو الذي يتعلَّق بفهم ومعرفة حركة الرسل التي عرضها القرآن الكريم في دائرة واسعة من الآيات الكريمة، لا لمجرد سرد التاريخ والسَّير، بل كي يعرف المؤمن موقعه من المخطَّط الإلهيِّ لقافلة البشريَّة التي كان أبطالها الأنبياء ﷺ، ولا سيَّما الرسل منهم، وهذا ما يمكن شرحه مختصرًا من خلال الإطلالة على سِير وتاريخ أولي العزم من الرسل الذين يشكِّلون قطب الرحي في مسيرة البشريَّة، وهو ما أفاده الإمام جعفر الصادق ﷺ في رواية معتبرة يقول فيها: «سادة النبيِّ والمرسلين خمسة، وهم أولو العزم من الرسل، وعليهم دار الرحي، نوح ﷺ وإبراهيم ﷺ وموسى ﷺ وعيسى ﷺ، ومحمد ﷺ...»<sup>(1)</sup>، فقولهُ ﷺ «وعليهم دار الرحي» يفيد أنَّهم المحور الأساس لحركة القافلة الإنسانيَّة في مخطَّط الله تعالى، فكلُّ من هؤلاء الخمسة، أحدث نقلًا نوعيَّة في تكامل البشريَّة نوضحها بالآتي:

أ. نوح ﷺ ومجتمع التواصل مع الله:

يوضِّح لنا القرآن الكريم أنَّ المجتمع الذي عايشه النبي نوح ﷺ كان ينكر الاتصال بين الله تعالى والناس عبر رسول بشريِّ، وبالتالي فإنَّ تواصل ذلك المجتمع مع الله عزَّ وجلَّ كان مقطوعًا، وهذا ما يفيدهُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّي غَيْرُهُ وَ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٧﴾﴾<sup>(2)</sup>.

ما يفهم من هذه الآية هو أنَّ مشكلة قوم النبي نوح ﷺ لم تكن في الإيمان بالله تعالى، ولا في تقبُّل أصل التواصل بين الله عزَّ وجلَّ

(1) المفيد، محمد: المزار، تحقيق: محمد باقر الأبطحي، ط2، بيروت، دار المفيد، 1414هـ، ص42.

(2) سورة المؤمنون، الآيتان 23-24.

والإنسان، بل هي في كون الوسيط في هذا التواصل إنساناً مثلهم، فقد منعهم استكبارهم من هذا الإيمان، وهم يتشابهون في موقفهم هذا مع إبليس الذي لم تكن مشكلته هي الإيمان بالله تعالى ولا بالسجود له؛ بل كانت في السجود للإنسان الذي يرى إبليس نفسه أفضل منه.

وقد حاول النبي نوح عليه السلام أن يوجد التواصل بين الناس وربهم عبر الرسول الإنسان، إلا أن المهتدين بدعوته كانوا قلة.

ويوضح القرآن الكريم أن الأمر قد وصل إلى حد اليأس من تدين سائر الناس غير من سبق إيمانه؛ ولذا أوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام أن يصنع سفينة النجاة لتنقذ من عليها من الطوفان الأعظم. قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٣٦ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ٣٧﴾ (1).

نعم، استطاع النبي نوح عليه السلام أن يبني مجتمعاً يؤمن بالتواصل بين الله تعالى والناس عبر الرسول الإنسان، إلا أنه كان مجتمعاً يتناسب في حجمه مع سفينة الطوفان.

### ب. إبراهيم عليه السلام ومجتمع التوحيد:

أوضح لنا القرآن الكريم أن المجتمع بعد نوح عليه السلام انحرف عن مسار العلاقة الصحيحة بالله عز وجل حتى وصلت إلى عبادة التماثيل، فبعث الله تعالى رسوله إبراهيم عليه السلام؛ لتكون له مهمة أساس هي بناء مجتمع التوحيد المعتقد بأن المعبود ينحصر بالله الواحد. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ٥٢ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عِبْدِينَ ٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٥٤ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ٥٥ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ٥٦﴾ (2).

وقد استطاع نبي الله إبراهيم عليه السلام بناء مجتمع موحد مؤمن بالله

(1) سورة هود، الآيات 36-37.

(2) سورة الأنبياء، الآيات 51-56.

تعالى نابذاً للتماثيل والأصنام، وقد تجلّى مجتمع التوحيد بأبناء خليل الله إبراهيم ﷺ الذين استجاب الله تعالى فيهم دعوته التي حدّثنا عنها القرآن الكريم بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (1).

من هذه المحطة الإبراهيمية، ومن صلب النبي إبراهيم ﷺ نشأ أبناء الدين الحنيفي الموحد لله تعالى من أبناء إسماعيل ﷺ، كما نشأ مجتمع بني إسرائيل الموحد لله تعالى من أبناء إسحاق ﷺ، والذي عانى محناً وخطوباً أوصلته إلى حالة الاستعباد في عصر فرعون، ليرسل الله تعالى لهم نبياً يخلصهم من محتهم، ويكون قائد المحطة الثالثة، وهو رسول الله موسى ﷺ.

### ج. موسى ﷺ ومجتمع التشريع:

يوضح لنا القرآن الكريم أنّ الدور الأساس لنبي الله موسى ﷺ كان صناعة مجتمع تشريعي يعيش أفراداه على هدي الشريعة الإلهية. ومن هنا نلاحظ التأكيد على دور الكتاب والألواح والرسالات في محطة النبي موسى ﷺ، وهذا ما نقرؤه في الآيات الآتية:

- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (2).
- ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (3).
- ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (4).
- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (5).
- ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أُصْطَفِيتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ (6).
- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ﴾ (7).

(1) سورة إبراهيم، الآية 35.

(2) سورة المؤمنون، الآية 49.

(3) سورة الأنعام، الآية 154.

(4) سورة الإسراء، الآية 2.

(5) سورة الأعراف، الآية 145.

(6) سورة الأعراف، الآية 144.

(7) سورة هود، الآية 110.

ومن هنا نجد أن اليهود، على الرغم من التحريف الذي دخل على كتبهم المقدسة، كانوا ذوي مجتمعٍ يتميز بالاعتقاد بالجوانب التشريعية بين أفرادهم.

### د. عيسى عليه السلام ومحمد عليه السلام ومجتمع العدالة الاجتماعية الكاملة:

بعد أن ارتقى المجتمع الإنساني من محطة الإيمان بالتواصل مع الله عبر الرسول الإنسان، إلى محطة الاعتقاد بتوحيد الله، إلى محطة المجتمع التشريعي، كان من المفترض أن تكون المحطة اللاحقة هي مجتمع العدالة الاجتماعية الكاملة، إلا أن كهنة اليهود وأحبارهم وقفوا سدًا منيعًا أمام مشروع النبي عيسى عليه السلام، وبما أن عملية التكامل الإنساني الاجتماعي اختيارية، وبما أن النبي عيسى عليه السلام لم يحقق مشروعه، فإن الله عز وجل، كما بين القرآن الكريم، رفع النبي عيسى عليه السلام إليه، ولم يُمتَه؛ ليكون له هذا الدور في مستقبل آت، وجعل الله عز وجل العدالة الاجتماعية الكاملة هدفًا لرسالة الرسول الخامس والأخير من أولي العزم محمد بن عبد الله عليه السلام، وهو ما نقرؤه في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١﴾.

وقد أكد الرسول الخاتم محمد عليه السلام أن قافلة البشرية سوف تصل حتمًا إلى هذا المشروع من دون حضوره الشخصي، بل من خلال أحد أحفاده القادمين، يعني به الإمام المهدي عليه السلام الذي يعتقد جميع المسلمين أنه سيحقق هذا المشروع، فعنه عليه السلام: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لَطَوَّلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ وَلَدِي، فَيَمْلَأُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مَلَأْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا»<sup>(2)</sup>.

(1) سورة التوبة، الآيات 31-33.

(2) الصدوق، محمد: كمال الدين وتمام النعمة، لا ط، قم المقدسة، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، 1405هـ، ص318.

وتؤكد الروايات النبوية دور عيسى بن مريم عليه السلام في حكومة المهدي عليه السلام؛ باعتباره شريكاً له في الحكم بعنوان عبّرت عنه بعض الروايات بـ «الوزير الأيمن للقائم»<sup>(1)</sup>.

## 5. الشهداء والإيمان بالرسول:

في ضوء ما تقدّم، نقارب المراد من الذين آمنوا برسول الله في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾<sup>(2)</sup>؛ فهم ليسوا مجرد معتقدين بالرسول، بل هم العارفون الواعون لمسيرة الرسل، التي من خلالها يعرفون المخطط الإلهي في مسيرة البشرية منذ بدايتها إلى نهايتها، وبالتالي يعرفون موقعهم، وفي ضوء ذلك يحدّدون دورهم في التكامل الإنساني الاجتماعي الاختياري، ليسيروا على وفق ذلك فيكونون صديقين، يقولون ويعتقدون، ويسيروا كما هو قولهم واعتقادهم، فإذا كانوا كذلك، فإنهم يكونون في موقع ومقام الشهادة على الناس؛ ولهذا، فمضافاً إلى ثوابهم وأجرهم (لهم أجرهم) فسيكونون في مقام عنديّة النور؛ لأنهم يكونون مظهرًا للحقّ ومُظهِرين دالّين وهادين إليه. فهؤلاء الشهداء هم شاهدون على الناس، مضافاً إلى كونهم مشاهدين لكرامات الله تعالى.

وبهذا نعرف الفرق بين المقتول في سبيل الله، الذي يكون مشاهدًا لكرامات الله ونعمه عليه متفاعلاً معها في عنديّة الرزق، لكنّه قد لا يكون في موقع الشاهد في مقام عنديّة النور بسبب ضيق في معرفته وشهوده الناظر إلى قافلة البشرية ومخطّط الله فيها، وقد يكون الإنسان شهيداً في مقام عنديّة النور من دون أن يُقتل في سبيل الله.

(1) البحراني، هاشم: غاية المرام، تحقيق: علي عاشور، لا ط، لا ن، لا ت، ج 7، ص 93.

(2) سورة الحديد، الآية 19.

## خاتمة

بناءً على ما تقدّم، نفهم قيمة المعرفة، ولا سيّما في مراتبها العليا، وأنها تمثل حقيقة الحياة الإنسانيّة التي كانت هدفاً لدعوة خاتم الرسل محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾<sup>(1)</sup>.

وعلى هذا الأساس نفهم أحكام الإسلام، فردية كانت أم اجتماعية، وحتى تلك التي تظهر قساوتها في المجتمع فهي مرتبطة بالحياة أيضاً، كما يعبر عن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾<sup>(2)</sup>.

ومن هذا نفهم حكم الجهاد الذي شرّعه القرآن الكريم ضد المعتدين ومن يُخاف من اعتدائهم<sup>(3)</sup>، والذي قد يؤدي إلى القتل، وهنا يؤكّد القرآن الكريم أن القتل حينما يكون في سبيل الله فإنه ليس إغناءً للحياة، بل هو قوة فيها؛ وذلك لكون المعرفة، كما تقدّم، هي الممثل الحقيقي لحياة الإنسان، وبالقتل ترقى المعرفة إلى رتبة الشهود التي هي أرقى درجات المعرفة.

وللارتقاء أكثر في درجات الشهود، يطرح القرآن الكريم مرتبة شهودية لا تقتصر على المشاهدة؛ بل بسعة إحاطتها بالمخطّط الإلهي، ودور الإنسان فيه، والذي يتلوه العمل في ضوء ذلك الشهود، وهي تكون شاهدة مضافاً إلى كونها مشاهدة.

وهذا ما يفتح الآفاق عند السائرين في الدفاع الجهادي عن الإنسانية، ليرتقوا في حال قتلهم من رتبة الشهداء المشاهدين إلى رتبة الشهداء المشاهدين الشاهدين.

كما يفتح الآفاق على من يُحرمون من رتبة القتل في سبيل الله، ليكونوا بتصديقهم الشهودي لمخطّط الله وسيرهم في ضوء ذلك التصديق، شهداء شاهدين، فيكون لهم عند الله أجرهم ونورهم.

(1) سورة الأنفال، الآية 24.

(2) سورة البقرة، الآية 179.

(3) انظر: للكاتب نفسه: التكفير ضوابط الإسلام وتطبيقات المسلمين، ط4، بيروت، بيت السراج للثقافة

والنشر، ص200-206.